أول السفر

علال الحجام

(1)

أَطيلي اعتصارَ الصُّبوح على غصّة الجرحِ
ما بينَنَا طرقٌ تلتوي في الجبالِ
وتدفُنُ في غابة السَّرو والسَّنديان متاعبَها
ثم تخرج سادِرةً من مغار المحالِ
وما بيننا سفنٌ تشتهيها الرياحُ
وتغرَقُ في سَبَخاتِ الكلامِ
وما بيننا سفرٌ موجِعٌ في الظلام.

(2)

قبلَ أن تستبيحَ المذيعةُ في المِكْرُفونِ الصلاةَ
وتستغرقي زمنا يتلفّعُ بالندمِ،
قبل أن تتوقّفَ أطيارُنا
عن نشيدٍ لخاتمةِ الوصْلِ مرتعِشِ
فيفاجئننا كالقضاءِ صفيرُ القطار الأخيرِ
يُداهمُ أحلامَنا
ويطاردُ خفَقَ النوارسِ في فجرِ عينيكِ بالعطشِ،
اشرَبي كأْسَك الآن في نفَسٍ واحدٍ
واطْلبي قدَحينْ
فقد يروِيانِ الأصيصَ المفجَّعَ في غربة الشرفةِ
والأقاحي التي ذبُلت لحظتينْ
قبل أن يَغرَقَ النورُ في الظُّلَمِ،
وغَداً...

وغداً يستحيلان ذاكرةً
وأنيساً يشاركُكِ الحلْمَ والشعرَ
والشايَ والوحدة المحرقةْ.
ليس في القلب متَّسعٌ للنَّوى
اشتعلي زنبقةْ،
إنَّ في القلب متّسعاً للجَوى
اقْتطفي جمرةً في اليَباب تراودُني شَبِقةْ!

(3)

وأنا لستُ أُخْلِفُ وعداً لقُبّرةٍ
سفَحَتْ من دمي
ما يخضّب أكثر نرجِسَها،
وأنا بعدَ تسعٍ سأوقظُ بابلَ من نومها
ثم أحضُنُ عشتارَ في عيدها بين كوكبة الكاهناتِ
تُبيح مفاتنَها
للعشيق الذي سيعود من المدن المُدلهمّةِ
سيفُهُ شبّابة تفتحُ الطُّرقَ المُكْفهرّةَ
أُترِعُ أقداحَها
وأُزَنِّرُها
– حينما تتغنّى مباهجُ أسوارها الغرِّ بالزَّنْزَلَخْتِ،
أناولها باقة من هواكِ استفاقتْ براكينُهُ
وانتحَتْ وجهةَ القلبِ في برْزخِ الاشتهاءِ.
أسيِّدةَ النَّخلِ والماءِ
سيدةَ الدِّفْءِ واللّحظة الشاعرةْ
هلْ لنهريْكِ أن يرشُفا دفقة من مدام سَبو...؟
هلْ لنهديْكِ أن يقبِسا وهَجاً من هواجرِ شوقيَ...؟
هذي المواويلُ تزهو...
مواويلُ سيّدتي زانَها الفرَحُ
نخلةٌ كاعبٌ بين نخَلاتها في المَدى نافرةْ
صوتُها البلَحُ،
وارتعاشُ الحنينِ المعَرِّشِ صفصافةٌ تترقَّبُ في القَرِّ
دفءَ حساسينِها ضامِرةْ،
كيف لا يسْكرُ الحرفُ من سحرِها
... هي أجمل حلْم رنا في العيونْ،
والطفُ جرعةِ خمرٍ وأشهى جنونْ!؟

(4)

هَزَّ عشتارَ رعشٌ سرى في الفرات نسيماً،
وانشودةٌ هدهدَتْ في المياه زوارقَها البيضَ
أطلقَتِ الروحَ من أسرِها
اشتعلَتْ زنبقةْ..
أدركَتْ أنّ في القلبِ متّسعاً للجوى
فقطفتُ لنخلةِ هذا الرَّدى
جمرةً في اليبابْ
تراودُني.... شبِقَةْ....!